بناء المدن السورية وتنظيمها *
في العصر الهلنستي

للاستاذ بشير زهدي

ليسانس في الحقوق والآداب

دبلوم معهد اللوفر

إن موقع سوريا الجغرافي الهام عند ملتقى القارات الثلاث — آسيا وأوربا وأفريقيا — من جهة ومعاصرتها أقدم الامبراطوريات (من مصرية وبابلية وحثية وآشورية ...) من جهة أخرى . كل ذلك جعل علماء الآثار في جميع أنحاء العالم يشكلون بعثات أثرية ويتجهون الى سوريا التي يعتبرونها « جنة علماء الآثار » ليبحثوا فيها عن أسرار الماضي بعدما زهدوا بالمعلومات التي تحويها الكتب .

ولئن كان هدف البعثات العلمية في الماضي هو العثور على الحُلى الذهبية والاواني القديمة والفخار والتماثيل وغيرها مما لا يقدر بثمن ، فان البعثات الأثرية منذ عهد قريب أخذت تهتم بدراسة مباني المدن المندثرة ، ومعابدها وقصورها وشوارعها وساحاتها وبكلمة موجزة بما نسميه « تنظيم المدن » .

ولاشك أن موضوع تنظيم المدن هو من المواضيع التي يهتم بها علماء الآثار في سوريا وخارجها . فبلادنا ذات التاريخ البعيد في القدم تضم مدناً كبيرة وصغيرة ، حية ومندثرة ، لا يعود تاريخ تأسيسها وتنظيمها إلى فترة تاريخية واحدة . ففيها المدن التي لا يعرف تاريخ بنائها على التأكيد

(★) يسرني أن أغتنم فرصة نشر هذا البحث الأول لأتوجه إلى الدكتور سليم عبد الحق بأسمى معاني الشكر لتشجيعه المتواصل لي . كما انني أشكر جميع أساتذتي المحترمين على ما أفادوني به من علم ومعرفة واطلاع .

لأنها أقدم من التاريخ نفسه (كدمشق مثلا) . وقد جعل نشوء الحضارات العديدة في بلادنا وفيما يجاورها ، وتميز كل حضارة بطابع خاص ، جعل بلادنا أشبه ما تكون بـ « كتاب ضخم مجيد » يضم أقساماً وفصولاً ، كلا منها عبارة عن مرحلة تاريخية تتميز ببناء مدينة . فتضم بذلك جهداً إلى جهود سابقة وتضيف بناء إلى أبنية الوطن . وهكذا نرى — فيما يتعلق بتنظيم المدن السورية — ان بلادنا هي بمثابة موسوعة لهـذا العلم . ففيها ظهرت التجارب الاولى في سبيل تأسيس مدن صغيرة لا تنظيم فيها . . . وفيها نرى ما وصل اليه الفكر البشري — على ممر الزمن — من رقي في العمران بوضع مخططات مستديرة الشكل (كجرابلس مثلا) على النمط الحثي ، ومخططات مضلعة ، ومخططات منتظمة لها شكل رقعة الشطرنج التي تبنتها المدن في العصر الهلنستي (كانطاكية ودورا اوروبوس) ومخططات ذات شارعين رئيسيين متعامدين : الشارع الذي يتجه من الشمال إلى الجنوب ، والشارع الذي يمتد من الشرق إلى الغرب (وهي المخططات التي تتميز بها المدن ومعسكرات الحدود في العصر الروماني) . وأخيراً فقد ساهمت الحضارة الاسلامية بتطور هذا العلم عندما شيدت مدناً جديدة (كالرملة مثلا) وسأقتصر على بناء المدن السورية وتنظيمها في العصر الهلنستي آملا بحث هذا العلم في العصر الروماني وغيره في أبحاث قادمة .

* * *

يتميز العصر الهلنستي بالجهود الكبيرة الموجهة نحو انشاء المدن وتنظيمها . ويعود الفضل في ذلك إلى الاسكندر المكدوني إذ أن أول ما قام به بعد انتصاره على داريوس قرب الحدود السورية التركية — هو تأسيس مدينة الاسكندرونة . وقد أدى اعجاب قواده بعمله العمراني هـذا إلى تبني فكرته عندما اقتسموا امبراطوريته فيما بينهم . فشهدت سورية في هذا العصر نهضة عمرانية واسعة النطاق لم ترها من ذي قبل . ويكفي أن نقارن عدد المدن السورية قبل العصر الهلنستي وبعده لندرك مدى تلك النهضة .

والواقع أن سلوقس نيكاتور أسس مدينة السويدية (لتخليد اسمه) وأنطاكية (باسم أبيه انطيوخس) وأفاميه (باسم زوجته) واللاذقية (باسم أمـه لاوديس) وبيرويا — أي حلب حالياً — (باسم مدينة في مكدونيا) كما أن نيكانور أحد قواد أنتيغون الاول أسس في ذلك العصر نفسه مدينة دورا اوروبوس (الصالحية) .

ولكن فكرة تخليد الحاكم أو الملك اسمه بتأسيس مدينة ما ليست فكرة حديثة بالنسبة لشرقنا ، ولم تزل بعد العصر الهلنستي . فقد كان الملوك البابليون والآشوريون يستهلون حكمهم

بتأسيس مدينة حديثة . كما أن زنوبيا أنشأت عدة مدن على ضفة الفرات منها المدينة التي عرفت باسمها « زنوبيا » (الحلبية في عصرنا الحاضر) .

ولكن الذي يسترعي انتباهنا هو أن نعرف الدافع الحقيقي الذي حمل السلوقيين على بناء هذا العدد الكبير من المدن .

من الثابت أن تحقيق السلام والقضاء على الحروب كانا من أهم أهداف الاسكندر المكدوني الاخيرة ، وذلك بخلق حضارة جديدة يساهم فيها ابناء الشرق والغرب على السواء . وهذه الحضارة هي الحضارة الهلنستية . وقد كان قواد الاسكندر من بعده من مبشري هذه الحضارة في امبراطوريته الواسعة وكان من المحقق عندهم ان البلاد تنطبع بالطابع الاغريقي[1] بقدر ماينى فيها من مدن حديثة لها النمط الهلنستي . فكان يؤتى بالجنود المكدونيين واليونانيين ليتمكن الحكام بواسطتهم من ادارة البلاد والسيطرة عليها[2]. وهذا في الواقع ما يفسر لنا سبب تأسيس المدن في كل مكان ، على الساحل (اللاذقية ، السويدية) وفي الداخل (انطاكية ، بيرويا ، افامية ...) ، وعلى ضفة الفرات (دورا اوروبوس ...) لحفظ طرق المواصلات ومراقبة البدو في الصحراء وبذلك يتضح أن الباعث على تأسيس المدن الحديثة في سوريا في العصر الهلنستي — كان حب السيطرة على البلاد وطبعها بالطابع الاغريقي عن طريق نشر الحضارة الهلنستية في المدن فكانت النهضة العمرانية لدى السلوقيين اذن ذات مآرب سياسية وثقافية . وتتجلى لنا هذه النهضة العمرانية في مظهرين :

(١) — بناء حي جديد أو تأسيس مدينة حديثة تجاور المدينة القديمة .

(٢) — بناء مدن حديثة .

فلنبحث كلا من هذين المظهرين على حده .

(١) — بناء حي جديد أو تأسيس مدينة حديثة مجاورة المدينة القديمة : لم يقتصر السلوقيون — لطبع البلاد بالطابع الاغريقي — على بناء المدن الحديثة فحسب بل عمدوا إلى بناء حي أو مدينة تجاور المدن التي كانت موجودة قبل العصر الهلنستي وبذلك حققوا غايتيها معاً : نشر الحضارة الهلنستية ومراقبة السكان أصحاب البلاد عن كثب . وهذا ماحققوه في دمشق ، اذا أضافوا الى المدينة الارامية القديمة مدينة حديثة اختلف المؤرخون على اسمها واسم بانيها وتاريخ بنائها . فمنهم من اعتقد أن اسمها كان ارسينوه Arsinoé (٣) وان بانيها هو بطليموس فيلادلف ، ومنهم من ذهب إلى الاعتقاد بان

(1) W. Tarn : La civilisation, hellenistique. Paris. Payot. p 124:Sauvaget : Esquisse d'une histoire de la ville de Damas p. 437.

(2) Sauvaget : Alep 34 - 35.

(3) Sauvaget : Esquisse. . . 438 - 439.

اسمها كان Demétrias وان بانيها هو أحد الملوك السلوقيين في فترة تقع بين ٩٥ و ٨٨ قبل الميلاد ، ومنهم أخيراً من جعل بناءها يعود الى ١١١ ق . م عندما جعلها انطيوخس التاسع عاصمة له(١) . وعلى كل فمها كان نصيب هذا الاسم أو ذاك من الصحة ، وان يكن هذا الملك أو ذاك هو باني المدينة فانه من الثابت أنه تأسس في العصر الهلنستي حي جديد مجاور للمدينة الآرامية [انظر اللوح الثالث . الصورة الاولى] أخذ باتساعه شكلَ مدينة لها جميع مميزات المدن الهلنستية . وفي الحقيقة اذا كانت دمشق الآرامية تحيط بمعبد الاله « حدد » فان المدينة الهلنستية المجاورة لها كانت تحيط بالساحة العامة (الاكورا) وتتميز بتساوي جزيراتها واستقامة شوارعها وتوازيها وتقاطعها مع بعضها بزوايا قائمة وغيرها من مميزات المدن الهلنستية . ولا شك أن حسن تنظيم هذه المدينة الهلنستية جعل المدينة الآرامية القديمة تقتبسه فيما بعد ، حتى أن الانباط الذين كانوا يتوافدون بكثرة الى دمشق اتبعوا نفس التنظيم « تقريباً » في تخطيط حيهم ، واذا قلنا « تقريباً » فذلك لانحراف جزيرات الحي النبطي .

وما قلناه عن دمشق الآرامية القديمة يمكن أن يقال عن حلب . فالمعروف عن حلب أنها مدينة قديمة جداً وموجودة بنحو عشرين قرناً قبل الميلاد ولكن كثرة الغزوات المتوالية قللت من اتساعها وأهميتها حتى اذا ماأقبل العصر الهلنستي أنشأ سلوقس الاول مدينة جديدة وأطلق عليها اسم (بيرويا) وكان لهذه المدينة الحديثة جميع مميزات المدن الهلنستية [انظر اللوح الثالث ـ الصورة الثانية] التي سنأتي على ذكرها بالتفصيل ـ وهكذا كان الاغريقيون يجاورون سكان البلاد الاصليين .

(٢) ـ بناء مدن جديدة : ان مايزهو به العصر الهلنستي هو كثرة المدن الحديثة التي تأسست دفعة واحدة في عصر واحد ولا بد من الاشارة الى انه يجب ان لانذهب بعيداً بمفهوم « البناء » اذ أن كثيراً من المدن التي اعتبرت حديثة لم تكن في الواقع سوى مدن قديمة أعيد بناؤها أو اقتصر على تغيير اسمها فقط . على انه يمكننا اعتبار انطاكية واللاذقية والسويدية وافامية ودورا اوروبوس مدناً حديثة انشئت في العصر الهلنستي . ولا بد هنا من التنويه بان سوريا التي كانت تشهد في العصور السابقة منافسين خطرين (كالحثيين والمصريين و . . .) ، رأت في العصر الهلنستي متنافسين جدداً هم البطالسة والانتيغونيون والسلوقيون . وكانت سياستهم العمرانية واحدة هي سياسة الاسكندر نفسها .

فمنذ وصول انتيغون الاعور الى سوريا شرع ببناء عاصمة له على ضفة نهر العاصي اسمها

(1) Sauvaget : Esquisse. . . 438 - 439 ;
E. Babelon : Les Rois de Syrie. . . Paris Rollin p. CLXI

باسمه « انتيغونيا » ولفت نظره هضبة ذات موقع استراتيجي ففكر بانشاء قلعة أو مدينة هناك اسماها « بيلا » ولكن حكمه لم يدم طويلا اذ انه هزم وابنه وحل محله البطالسة والسلوقيون . فقام البطالسة ببناء المدن في سهل البقاع وسوريا الجنوبية . ولكن الجهود الكبيرة المبذولة في سبيل بناء المدن تعود الى سلوقس نيكاتور وخلفائه السلوقيين المعروفين باسم « ملوك سوريا » .

اختيار مكان ما لبناء مدينة حديثة : لاشك أن للمكان أهميته الكبرى في مستقبل المدينة وحمايتها . وهذا ماجعل الحكام في ذلك العصر يختارون الهضاب وضفاف الانهار والواحات والساحل البحرى وقرب الغابات والطرق التجارية وجوار الينابيع . . فلنبحث ذلك بالتفصيل .

(آ) — المدن التي يعود سبب اختيار موقعها الى حصن : لقد كانت فكرة الدفاع من الامور الهامة عند حكام ذلك العصر والدليل على ذلك ان موقع « قلعة المضيق » على نهر العاصي جذب أنظار انتيغون الاعور فجعلها مدينة دعاها « بيلا »(١) ولم تخف أهميتها الدفاعية – فيما بعد – عن سلوقس نيكاتور الذي تبنى فكرة أنتيغون ولكنه جعل اسم المدينة « أفامية (باسم زوجته) » . والواقع أن الجبال التي تحيط بها تشبه السور المنيع يحيط به مجرى العاصي من جميع الاطراف ، وهذا ماجعلها تشبه القلعة الحصينة (٢) التي كانت في زمن السلوقيين معسكراً لهم يضم جميع قواتهم الحربية . وما يقال عن افامية ينطبق تماماً على مدينة دورا اوروبوس التي جذب موقعها الاستراتيجي انظار الآشوريين فيما مضى ، ولم تخف أهميتها فيما بعد عن أنظار نيكانور الذي جعلها مدينة محصنة استمر بناؤها في عهد سلوقس الاول وخلفائه من بعده .

(ب) — المدن التي يعود اختيار موقعها إلى نهر : لم تخف فوائد الانهار وأهميتها الاستراتيجية عن حكام العصر الهلنستي . فقد اختار انتيغون الأعور موقع عاصمته « انتيغونيا » على ضفة نهر العاصي » وهو الموقع ذاته الذي اختاره سلوقس نيكاتور فيما بعد لبناء عاصمته « انطاكية » التي عرفت باسم « انطاكية على العاصي » ، وفي الحقيقة فان النهر يشكل بالنسبة لوسائل الدفاع في ذلك العصر – حاجزاً أمام العدو وهذا ما يسهل الانصراف الى تحصين بقية الجهات وفي هذا اقتصاد بالتحصين فضلاً عن الفوائد الناتجة عن سهولة النقل بواسطة الملاحة النهرية في عصر كان نهر العاصي قابلاً للملاحة(٣) . وهذا

(1) W, Tarn : La civilisation hellenistique p. 139.
(2) Strabon : L géographie. Trad. par Amédée. Paris. Librairie Hachette (1800). tome III (XVI).
(3) W· Tarn: La civ . hell. .p 138 .

ما يفسر ايضاً أسباب اختيار السلوقيين — وزينوبيا فيما بعد — ضفاف نهر الفرات لانشاء المدن والمحطات التجارية .

(ج) — المدن التي يعود اختيار موقعها إلى البحر : لابد للمدن الداخلية من مرافىء تصدر البضائع منها وتستورد بها . وتعتبر هذه المرافىء بمثابة باب يدخل منها القادمون من بلاد ما وراء البحار. وهذا ما جعل السلوقيين يبنون مرفأي اللاذقية والسويدية وربما كان ازدهار هذين المرفأين في العصر الهلنستي ناتجاً عن سياسة السلوقيين ورعايتهم لهما مما ساعد على نقل النشاط التجاري من المرافىء الفنيقية اليها ولاسيما صور التي شل نشاطها التجاري منذ حصار الاسكندر لها وتهديمه لجزيرتها.

(د) — المدن التي يعود اختيار موقعها إلى الطرق التجارية : لاشك ان التجارة من الأسباب التي تشجع على تأسيس المدن وازدهارها وهذا ما يوضح سبب بناء جرش - في العصر الهلنستي - على الطريق الذي يفصل دمشق عن فيلادلفيا. حتى ان دمشق نفسها تعود أهميتها - إلى حد ما - الى موقعها الجغرافي على الطريق التجاري الممتد من الشمال إلى الجنوب وهذا ما يجعلنا نتساءل فيما اذا كان انشاء السلوقيين المدينة الهلنستية جوار دمشق الآرامية يعود إلى سبب اقتصادي أم سياسي . مهما يكن من أمر فانه من المحقق ان الطريق التجاري يساهم في ازدهار المدن كما ان أهمية المدن السياسية تؤدي الى امتداد طرق المواصلات نحوها. وهذا ما جعل أنطاكية قديماً مركزاً لشبكة من طرق المواصلات.

(ﻫ) — المدن التي يعود اختيار موقعها إلى ينبوع : يمكن ان يعتبر الينبوع من الأسباب التي تميز موقعاً على آخر عند البحث عن مكان ما لبناء مدينة ما ، وهذا ماجعل انطاكية تفخر بكثرة ينابيعها وحمل مسيو كلانفيل (١) دوني على الاعتقاد بأن بناء مدينة انطاكية يعود الى الاسكندر وليس الى سلوقس نيكاتور ، ويسرد مسيو كلانفيل دوني اسطورة تتلخص بان الاسكندر شرب من مياه هذه المنطقة فحمله استحسانه لعذوبة مياهها على بناء مدينة انطاكية . هذا وان كثرة مياه منطقة دفنه كانت من الاسباب التي شجعت على بناء دفنة ذات الشهرة الواسعة . ويذكر مسيو اسكندر بوركونود ان موقع مدينة السويدية كان يسمى قبل العصر الهلنستي بـ « نهرماء » وهذا مايجعلنا نعتقد ان كثرة مياه هذه المنطقة كانت من الاسباب التى شجعت سلوقس على اختيارها كموقع لبناء مدينة السويدية .

(و) — المدن التي يعود اختيار موقعها الى غابة : فهي حالة دفنه التي تقع في غابة واسعة . استشارة الآلهة قبل البدء ببناء المدينة : يبدو ان سكان ذلك العصر كانوا يشكون بانفسهم

(١) الحوليات الاثرية . المجلد الاول . الجزء الثاني ١٩٥١ ص ٢٨٠

في حسن اختيارهم مكاناً ما لبناء مدينة حديثة . فكان عليهم ان يقدموا القرابين الى آلهتهم لينالوا موافقتها وليعرفوا — باشارة ما — مستقبل مدينتهم المزمع انشاؤها . تلك كانت حالة سلوقس نيكاتور عندما كان متردداً دون أن يستقر رأيه على موقع ليبني فيه عاصمته . فبعد قيامه بالمناسك المتادة في دفنه ذهب الى قمة « كاسيوس » لاستشارة الهه « زوس » مبتهلا اليه ان يوحي اليه بموافقته باشارة ما . وبعد قيامه بالتضحية المفروضة ترك الامر الى ارادة الآلهة لتعين له المكان المناسب . وفجأة رأى نسراً يلقي بقطعة من فريسة قرب البحر في موقع خصصه سلوقس لبناء مدينة السويدية . وأخيراً بنى عاصمته انطاكية بعد استشارة « زوس » اله مدينة أنتيغونيا .

حفلة التدشين : يصف مسيو ل . م . انفري في كتابه « انطاكية »[1] حفلة تدشين مدينة انطاكية التي جرت بحضور جمهور غفير يتقدمه سلوقس نيكاتور ورجال الدين الوثنيون وحملة السلاح من الرجال ، وفتاة جميلة جداً تدعى ايماته Aimathé تهيأت لتكون الاضحية نفسها ، لان اعتقادات الوثنيين كانت تتطلب تضحية فتاة عذراء لضمان حماية الآلهة . وهكذا سال دم الفتاة « ايماته » تحت سكين الراهب الوثني امفيون Amphion لمجرد رغبة سلوقس برؤية عاصمته مباركة بين المدن . »

تخطيط المدينة في العصر الهلنستي : من الصعب جداً — في وقتنا الحاضر — معرفة تفاصيل مخطط المدن في العصر الهلنستي وذلك بسبب التغير الكبير الذي طرأ على المظاهر الخارجية لهذه المدن خلال العصور اللاحقة وعلى ممر الزمن . ويكفي أن نستعرض قول مسيو وولرس (ان أرض المدينة « انطاكية » الرومانية البيزنطية توجد اليوم على عمق خمسة الى ستة أمتار . . .)[2] لندرك مدى الصعوبة التي تعترضنا لمعرفة تفاصيل تنظيم المدن في ذلك العصر . ولكن بقاء دورا اوروبوس تحت الرمال التي حفظتها ومقارنة الاطلال الباقية بعضها ببعض مما يساعدنا — الى حد ما — على معرفة المخطط السائد في ذلك العصر .

فلئن كان الحثيون قد تبنوا المخطط المستدير ، والاشوريون المخطط المضلع . . . فان السلوقيين قد اتخذوا المخطط المنتظم — الذي يشبه رقعة الشطرنج — فطبقوه في كل مدنهم التي أسسوها رغم بعض مساوئه الآتية :

(١) — ان تضاريس الارض في بعض المناطق تحول دون تطبيق المخطط المنتظم بكامله .

(1) L.M. Enfrey : Antioche Paris. Libairie orientaliste 1930.
(2) Weulersse : Autioche (Bnll. d'Etudes orientales.t IVp 27.

(٢) – ان تطبيق المخطط المنتظم يجعل طرق المواصلات بين مركز المدينة واحدى زواياها لاتخلو من الاطالة والبعد .

(٣) – ان تشابه الجزيرات وتماثل الشوارع يثير شعوراً بالملل .

ولكن فوائد تطبيق المخطط المنتظم كثيرة نذكر أهميتها .

(١) – ان رغبة مؤسسي المدن برؤيتها قائمة في أسرع وقت ممكن – لتخليد أسمهم – جعل المخطط المنتظم الافضلية على غيره لانه قابل للتطبيق فى كل مكان يرغب تأسيس المدينة الحديثة فيه .

(٢) – ان المخطط المنتظم يوافق الطبع الاغريقي المغرم بالتناسق والرياضيات . . .

(٣) – ان المخطط المنتظم يسهل انشاء المعسكرات والمدن القائمة على اساس توزيع حصص الاراضي على الجنود .

(٤) – يساعد المخطط المنتظم على توسيع المدينة باضافة جزيرات جديدة الى الجزيرات السابقة وهذا ماحدث في انطاكية (١) التي كثر سكانها ولم تعد المدينة التي أسسها سلوقس نيكاتور كافية مما حمل سكان انطاكية على بناء حي جديد يشبه المدينة بكثرة جزيراتها التي لاتقل عن جزيرات المدينة التي بناها سلوقس نيكاتور . واستمرار ازدهار المدينة حمل سلوقس كالينيكوس على بناء مدينة ثالثة . وأخيراً قام انطيوخس ابيفان ببناء مدينه رابعة لانطاكية [انظر اللوح الرابع . الصورة الاولى] وما يقال عن انطاكية ينطبق على دمشق التي أضيف اليها حي النبطيين (٢) . وحلب التي ادى ازدهارها في العصر الروماني الى اتساع المدينة باضافة جزيرات جديدة .

(٥) – ان المخطط المنتظم يساعد على سهولة توجيه المدينة للشمس .

(٦) – ان تطبيق المخطط المنتظم في بناء مدينة الاسكندرية وشهرته الواسعة التي انتشرت في الآفاق ، جعلته مفضلا لدى السلوقيين .

وقد عين واضعو المخطط المنتظم الاماكن اللازمة لبناء الابنية العامة من معابد وقصور والأبنية التي تتعلق بالثقافة الاغريقية كالمسارح والملاعب وأماكن السباق . . . وقد حفظ لنا التاريخ اسم « كسينوس » واضع مخطط انطاكية ، ولم يعرف حتى الان أسماء بقية المهندسين .

السور : كان يبنى لكل مدينة سور ليساهم – مع موقع المدينة الحصين – على الصمود أمام غزو المعتدين . ولا شك أن لطبيعة الارض أهميتها وتأثيرها على شكل السور الذى يتبع عادة

(1) Tarn : La civilisation hellenistique p 138

(2) Sauvaget : Esquisse . . . p 442

طرف الحفرات الطبيعية ولا يحيط مباشرة بجزيرات المدينة . وهكذا نرى أن الشكل العام للسور بخمس الاضلاع في دورا اوروبوس (الصالحية) وشبه منحرف في أفامية (قلعة المضيق) واللاذقية ومربع في بيرويا (حلب) ومستطيل في دمشق . ويتفاوت ثخن السور بين ١٫٨٠م والاربعة أو الستة أمتار (كما في دورا اوروبوس) وذلك بحسب الجهات التي يتوقع منها الهجوم . أما المواد المستعملة في بناء الاسوار فهي الكتل الحجرية الكبيرة جداً .

القلعة : تضم معظم المدن الهلنستيه قلعة من شأنها زيادة قوة المدينة الدفاعية . وكانت القلعة تعتبر كنقطة يعتمد عليها الحاكم . فهي تحتل منطقة عالية لها أهميتها الدفاعية ، وتسمح بالاشراف والسيطرة على المدينة أو الطريق أو النهر ونذكر على سبيل المثال قلعة حلب (١) الواقعة على هضبة تشرف على المدينة بكاملها . وتكون القلعة غالباً ملتصقة بالسور نفسه ، او محاطة بحفرة أو خندق وهذا ما يجعلنا نتساءل فيما اذا كان تحصين المدن في العصر الهلنستي كان يجري فعلاً من قبل المهندسين العسكريين .

الشوارع : كانت حركة المرور تحتل المركز الاول من اهتمام مهندسي ذلك العصر وذلك بغية تأمين السير الى المعابد والقصور والساحات العامة ... وغيرها . فالشوارع كانت متوازية ومتقاطعة بزوايا قائمة وتجتاز المدينة من أقصاها الى أقصاها وكان يختلف عرضها بين ٣ م و ٩م حسب أهميتها وتخصيصها للمشاة فقط أو العربات أيضاً . وكانت الشوارع الرئيسية تقابل غالباً الجهات الاصلية وتمتاز بالاروقة التي تقع على جانبيها . ويعتقد أن الشارع الرئيسي ذا الاروقة الجانبية هو مما أبدعه العصر الهلنستي . ولكن الشرق – حسب رأي مسيومارتان – عرف قديماً الرواق . ويذكر دليلاً على ذلك رواق زيقورة ماري المؤلف من خمسة دعائم . ويضيف الى ذلك أن الاروقة «الجانبية للشوارع نشأت من اختلاط ما أتى به المسيسينيون مع التقاليد السورية» والواقع أن الاروقة التي تحيط بجانبي الشارع هي مفخرة تنظيم المدن في العصر الهلنستي ، وأهميتها جعلت العصور اللاحقة تتبناها وتجعلها في كل مكان .

الاقواس : شهدت سوريا في العصر الهلنستي عنصراً جديداً مما أبدعته عبقرية ذلك العصر في

(I) Sauvaget : Alep 44

تنظيم المدن . وهذا العنصر الجديد هو عبارة عن قوس (تترابيل) كان يوضع داخل المدينة عند ملتقى الطرق . وما زالت مدينة اللاذقية تحتفظ باحد هذه الاقواس [انظر اللوح الاول] وهو يتألف من بناء له شكل مكعب وله أربع فتحات يختلف اتساعها بحسب أهمية الطريق الذي تؤدي إليه . فالفتحتان اللتان تقابلان الجهتين الشمالية والجنوبية هما أكثر ارتفاعاً وأبهى منظراً من الفتحتين الأخريين . وقد تبنى العصر الروماني – فيما بعد – هذه الاقواس واستعملها للحد من رؤية الشوارع الطويلة والمستقيمة التي كانت تبدو كأن لانهاية لها .

الجزيرات : هي مجموعات الابنية التي تحيط بها الشوارع المستقيمة المتوازية والمتقاطعة مع بعضها بزوايا قائمة . وتكون الجزيرات – عادة – متساوية في المخططات الهلنستية وتنفصل عن بعضها بالطرق والشوارع . وان تشابه ابعاد الجزيرات في المدن السورية يعيد الى الذاكرة فكرة بنائها في عصر واحد . وقد ذكر مسيو سوفاجه(١) ان ابعاد هذه الجزيرات تبلغ ١١٢ × ٥٧ م في اللاذقية ؛ ١١٢ × ٥٨ م في انطاكية ؛ و ١٠٠ × ٤٥ م في دمشق و ١٢٠ × ٤٦ م في حلب و ١٠٠ × ٤٠ في دورا أوروبوس وكل جزيرة كانت تتألف من منزلين يطل كل منهما على شارع مواز للشارع الذي يطل عليه المنزل الآخر . ويعتقد أنه لم يكن لهذه المنازل فتحات كبيرة على الشوارع بسبب تقاليد الشرق وقلة الزجاج في ذلك العصر .

الساحات العامة (الآجورا) : الساحات العامة هي احدى العناصر الاساسية في تنظيم المدن الحديثة في العصر الهلنستي . لان نشاط المدينة يتمركز حول الساحة العامة . فالساحات العامة هي اذاً المركز الحيوي للمدينة وقد كانت وظائفها تتنوع على ممر الزمن . فبعد أن كانت مكاناً يتلاقى فيه السكان أصبحت مكاناً يتنزهون فيه وسوقاً يتبايعون فيها (٢) حتى اذا ماظهرت الاروقة الى حيز الوجود نازعتها هذه الصفة التجارية . ويعتقد مسيو مارتان في كتابة « البحث عن الآجورا (٣) » ان الساحة العامة كانت موجودة في سوريا قبل العصر الهلنستي . اذ أن باحات المعابد والقصور لم تكن سوى ساحات عامة . ويذكر على سبيل المثال باحة معبد بيلوس (جبيل) المحاطة برواق ،

(1) Sauvaget : Le plan de Laodicée p. 94

(2) Sauvaget : Esquisse. . . 439

(3) Martin (Roland) : Recherche s sur l'agora. (Paris Boceard 1951) p. 78

وساحة رأس شمرا الواقعة في المدينة المنخفضة قرب شاطىء البحر في حي التجار . ويضيف الى ذلك قوله « اذا لم تكن لهذه المناطق ساحة عامة محددة تماماً فانها احتفظت بشكل أثّر فيما بعد على نشوء وتطور الساحة العامة » ويعتقد مسيو لاڤدان ان الباحات الكبرى في المعابد والهياكل في الشرق هي امكنة طبيعية للتجمع و كذلك القصور التي لها باحات ذات الاروقة . وباحة قصر ماري خير مثال على ذلك . ولكن وان كانت هذه الباحات في القصور والمعابد لها أهمية الساحات العامة ، الا ان سوريا لم تعرف الساحة العامة (الآجورا) ـ كعنصر مستقل قائم بذاته الا في العصر الهلنستي . وفي الحقيقة أصبح لكل مدينة ساحة عامة ابتداء من العصر الهلنستي. ولم يقتصر الامر على المدن الحديثة بل شمل ايضاً المدن القديمة كدمشق مثلاً . وتختلف مساحة الساحات العامة وموقعها من مدينة إلى أخرى . فساحة دمشق ـ التي تقابل معبد حدد ـ تبلغ مساحة ثماني جزيرات . في حين أن ساحة حلب ـ التي تقع على طرف الشارع الرئيسي ـ تبلغ مساحة ثلاث جزيرات . أما فيما يتعلق بساحة مدينة دورا اوروبوس [انظر اللوح الثاني] فان مسيو مارتان (١) يعتقد أنها كانت موجودة في باديء الامر ويبلغ اتساعها مساحة ثماني جزيرات ، ويفترض وجود سلسلة من الابنية تضم مكاتب عديدة ويعتقد ان الجهة الجنوبية كانت غير مبنية وانما كان هناك جدار يحجب وراءه ارضاً لابناء فيها . في رأيه ان شكل هذه الساحة هو هلنستي ويتساءل عن أسباب عدم وجود الاروقة في هذه الساحة . فلا يمكن أن يكون ذلك لنقص فى الاحجار اللازمة لان المنطقة لاتخلو منها . ولا يمكن أن يعزى ذلك الى تقاليد محلية لان الاروقة كانت موجودة في قصر مدينة ماري القريبة منها . فربما كان سبب ذلك اذاً الرغبة في الاقتصار على تحقيق قسم من ذلك المشروع الكبير في وقت كان الاستعداد لتحصين المدينة يشغل الاهتمام الاول لكونها مدينة على الحدود . ويعتقد مسيو مارتان ان تنفيذ اعمال ساحة دورا اوروبوس كان بطيئاً ولم تأخذ الساحة شكلها النهائي الا في النصف الثاني من القرن الثالث مع احتفاظها بالنمط الهلنستي .

السوق : كانت الاسواق تقام في باديء الامر في الامكنة التي يكثر فيها تجمع السكان أي قرب المعابد والقصور وخاصة في الساحة العامة ولكن عندما انتشرت الاروقة في كل مكان ، أخذت تحل محل الاسواق . ومن الصعب أن نعين تاريخ هذا التغير . ولكن المعتقد ان اتساع المدينة كان

---

(1) Martin : Recherches. , .P 408

من الاسباب التي جعلت التجارة تنتشر في جميع انحاء المدينة عوضاً من أن تتمركز في مكان واحد .

المعابد : ان المعابد هي من أهم المباني التي كان يهتم بها الاهتمام اللائق ويخصص لها أقصى ما يمكن من جهد واعتناء ولئن كانت الحفريات الاثرية لم تكشف بعد النقاب عن المعابد التي احتفظت بشكلها الاول ، فان المؤرخين يقدمون لنا المعلومات الهامة التي تتعلق بالمعابد المشيدة لتمجيد « آبولون » اله العائلة السلوقية . فهناك عدد من المعابد التي لم يبت فيها حتى الآن فيما اذا كانت قد بنيت في العصر الهلنستي ثم أعيد بناؤها في العصر الروماني . وعلى سبيل المثال يمكن ذكر معابد دورا اوروبوس التي بناها سكانها لتمجيد سلوقس نيكانور في بادىء الامر ثم لتمجيد خلفائه من بعده وأخيراً آلهة العائلة السلوقية نفسها مثل زوس اولمبيون ، آبولون ، آرتميس وقد كشفت حفريات دورا اوروبوس النقاب عن عدد من المعابد أشهرها : معبد أرتميس نانيا (الآلهة الكبرى لمدينة دورا اوروبوس) ومعبد أتار غاتيس . وكان لمعبد آبولون وارتميس في دفنه شهرة واسعة .

المسارح : يعود تاريخ المسارح في سوريا الى العصر الهلنستي . فأصبح المسرح منذئذٍ عنصراً ضروريا لكل مدينة وقد كان في بادى الامر ملحقاً بالمعابد . وقد أدرك المهندسون ـ في ذلك العصر ـ كيفية الاقتصاد بالنفقات والتأكد من متانة بناء المسارح وذلك بجعلها تستند على منحدر التلال . ولكن مما يؤسف له أن الحفريات لم تكشف حتى الآن عن مسارح العصر الهلنستي وان جميع المسارح التي اكتشفت تعود حسب رأي مسيو فريزول ـ الى العصر الروماني (١) . فهل يجب الاعتقاد ـ مع مسيو فريزول ـ بان تاريخ المسارح يعود الى العصر الروماني ؟ وهذا ما أستبعده لان المسرح كان يشبه في أهميته الساحة العامة الآغورا . وان مسيو فريزول نفسه يعتقد بوجود المسرح قبل العصر الروماني ولكن على نطاق ضيق بقوله « . . . ان تطور المسرح في سوريا كان محدداً جداً قبل العصر الروماني . . . » والواقع انه من الصعب الاعتقاد بعدم وجود المسرح في العصر الهلنستي ولكن كيف يمكننا تفسير عدم كشف الحفريات النقاب عن أي مسرح هلنستي . فهل كانت المسارح ـ في ذلك العصر ـ تقام من الخشب مما لم يبق لها أي أثر . ان سوريا في الواقع غنية بالغابات ولكن التجارب أثبتت عدم صلاحية المسارح الخشبية وذلك على أثر الحوادث التي كانت تؤدي بالمسرح كله في بلاد الاغريق ، فلا يعقل أن تقام المسارح الجديدة في سوريا باسلوب دلت الايام على

(١) مجلة الحوليات الاثرية السورية : المجلد الثاني ١٩٥٢ ص ١٠٠

عدم ملاءمته مما يجعلنا لانقبل فرضية عدم اكتشاف المسارح الهلنستيه بسبب بنائها من الخشب وكل مايمكننا اعتقاده – حتى اليوم الذى تكشف فيه الحفريات عكس ذلك – هو أن المدن السورية في العصر الهلنستي ولا سيما المدن الكبيرة منها كانت تضم مسارح حلت المسارح الرومانية محلها فيما بعد بغية توسيعها أو اعادة بنائها على النمط الروماني .

الملاعب : تعتبر الملاعب أيضاً من العناصر الجديدة التي شاهدتها المدن السورية في العصر الهلنستي وكانت ملحقة ببعض المعابد ، فكان موقعها اذاً في مركز المدينة . وكانت الملاعب تعتبر كمؤسسات ثقافية أو تعليمية . ويمكن ذكر – على سبيل المثال – ملعب انطاكية الذى كان يتمرن فيه الشباب على قذف القرص .

أماكن السباق : ظهرت أماكن سباق الخيل والعربات في سوريا في العصر الهلنستي . وكان سباق الخيل شائعاً في مدينة افامية . وقد وجدت في الجنوب الشرقي من مدينة السويدية أطلال يعتقد أنها كانت ملعب سباق . كما أن حفريات مدينة انطاكية أظهرت بناءً دارساً يعتقد انه من بقايا ملعب سباق . من كل ماتقدم يستنتج ان اماكن السباق كانت من العناصر الجديدة التي كانت تضمها المدن الهلنستية في سوريا .

القصور : لم يتوان السلوقيون الذين أسسوا عدداً كبيراً من المدن في سوريا عن بناء قصور لهم . ويحدثنا المؤرخون انهم نقلوا قصورهم من مدينة انطاكية القديمة الى الحي الجديد الذي بنوه في جزيرة انطاكية . ومازال برجان كبيران في انطاكية يعرفان باسم « بقايا قصر السلوقيين » . ولم تكشف بعد حفريات مدينة أفاميا أي أثر عن القصر الذي كان انطيوخس ابيفان قد بناه للاعيان . أما فيما يتعلق بدمشق فان مسيو سوفاجه يعتقد ان السلوقيين قد أعادوا بناء قصر قديم فيها يقع جنوب الشارع المستقيم .

مشكلة تزويد المدن السورية بالمياه : لم يهمل السلوقيون أي ناحية من نواحي رفع مستوى المدن وازدهارها . ولا شك أن مشكلة المياه هي من المشاكل الحيوية التي تسترعي الانتباه والتي كان لا بد من ايجاد حلول لها . ولكن مما يؤسف له ان هذا الموضوع مازال غامضاً . فالمؤرخون يسردون بعض المعلومات القيمة ، ونذكر على سبيل المثال ابن شداد الذي يقول ان الذي

بنى مدينة بيرويا (حلب) جلب الماء العذب اليها وأوصله الى وسط المدينة (١) . أما فيما يتعلق بتزويد انطاكية بالمياه فان مسيو كلانفيل (٢) دوني عثر على مخطوط عربي من عصر متأخر يفيد « ان سلوقس الاول بنى قناة لتزويد انطاكية بالماء » . وقد أتى السلوقيون بالمياء من الضواحي الى انطاكية ، ويستدل من كتابة وجدت في قناة اعتبرها المنقبون من القرن الثاني ق .م وكانت تهدف جر مياه سيل « الأونوبنيكس » الى المدينة . وكانت المياه تجمع في خزانات على منحدر الجبل وقد عرف اسم المعمار « كوسوتيوس » وبناء هذه القناة هو من الاعمال التي قام بها انطيوخس ايفان في سبيل بناء حي جديد في انطاكية .

الخزانات والصنابير Nymphée : عرفت سوريا في العصر الهلنستي بناء حديثاً ذا مظهر جميل تزينه - في بعض الاحيان - تماثيل ربات المياه Les Nymphes ، يزود السكان بالماء . وقد ازدادت اهمية هذا البناء في العصر الروماني .

تجميل المدن بالحدائق والاشجار : أخذت الاشجار تلعب دوراً هاماً في تجميل المدن السورية في العصر الهلنستي . ولكن هذا يعود الى تقاليد الشرق اكثر مما يعود الى مبتكرات الاغريق وهذا مايؤكده مسيو مارسل بويت (٣) M. Poète حين يقول : يجب ان لاينسى ان تحسس جمال الطبيعة في الفن الهلنستي هو شيء جديد يعود الى التأثيرات الشرقية . ويؤكد مسيو لافدان(٤) الفكرة نفسها بقوله : أن الاغريقي اذا أحب شجرة ما فذلك من أجل ظلها وليس من اجل جمالها المجرد . ولا شك أن تجميل المدن بالحدائق والاشجار هو مما قدمه الشرق أثناء مساهمته في تكوين الحضارة الهلنستية .

وان الحدائق التي كانت موجودة في جميع نواحي انطاكية انما احدثت لتتحول الطبيعة الى الجمال الذي يسر العيون ويشرح الصدور . وهذا دليل واضح ونتيجة طبيعية لرقة حياة السكان الذين كانوا

---

(1) Sauvaget : Alep. p 45 (Note 106)

(٢) الحوليات الاثرية السورية : المجلد الثاني ١٩٥١ ص ٢٧٩ - ٢٨٠ - ٢٨١

(3) Marcel poële : Introduction à l'urbanisme (Paris, Boivin) 1926

(4) P. Lovedan : Histoi re de l'architeture urbaine (Paris. Henri Saurem)

يتحسسون جمال الطبيعة . فغدت الغياض من العناصر الضرورية لحياة السكان وليس ادل على ذلك من غابة دفنة التي كان يبلغ محيطها ١٥ ك . م تزينها الاشجار وتجري فيها جداول الماء . وقد بلغ من شهرة دفنه أنها جعلت انطاكية تدعى بـ (انطاكية قرب دفنه) . كما أن ضواحي أفامية كانت أماكن نزهات تمتد من أسوار المدينة الى نهر العاصي . وكان يوجد في هذا الوادي الصغير مسبح تحيط به الاشجار .

ويعتقد أن الاهمية التي بلغتها الاشجار في تجميل المدن في العصر الهلنستي كانت من الاسباب التي جعلت الاروقة تظهر الى حيز الوجود في تنظيم المدن وتبلغ شأنها الكبير من الاتساع على طرفي الطريق باسطة ظلها كالاشجار .

ابواب المدينة : كان لابواب المدينة في العصر الهلنستي هدفان أولهما : انها مدخل المدينة وهذا ما كان يستلزم حسن تحصينها . وثانيهما انها عنصر قابل لتجميل المدينة به . وكان يختلف عدد الابواب من مدينة الى أخرى . فكان لدورا اوروبوس ثلاثة أبواب . أولها يؤدي الى الجهة الغربية (أي الى الصحراء) وثانيها الى نهر الفرات في جهة الشرق وثالثها يقع في الجهة الجنوبية الشرقية وكان الباب الغربي باباً رئيسياً له أهميته الخاصة وهذا ماحمل على تجهيز طرفيه ببرجين كبيرين . وكذلك الحال فيما يتعلق بباب انطاكية (المسمى بباب المدينة) فله جانبان مجهزان ببرجين كبيرين .

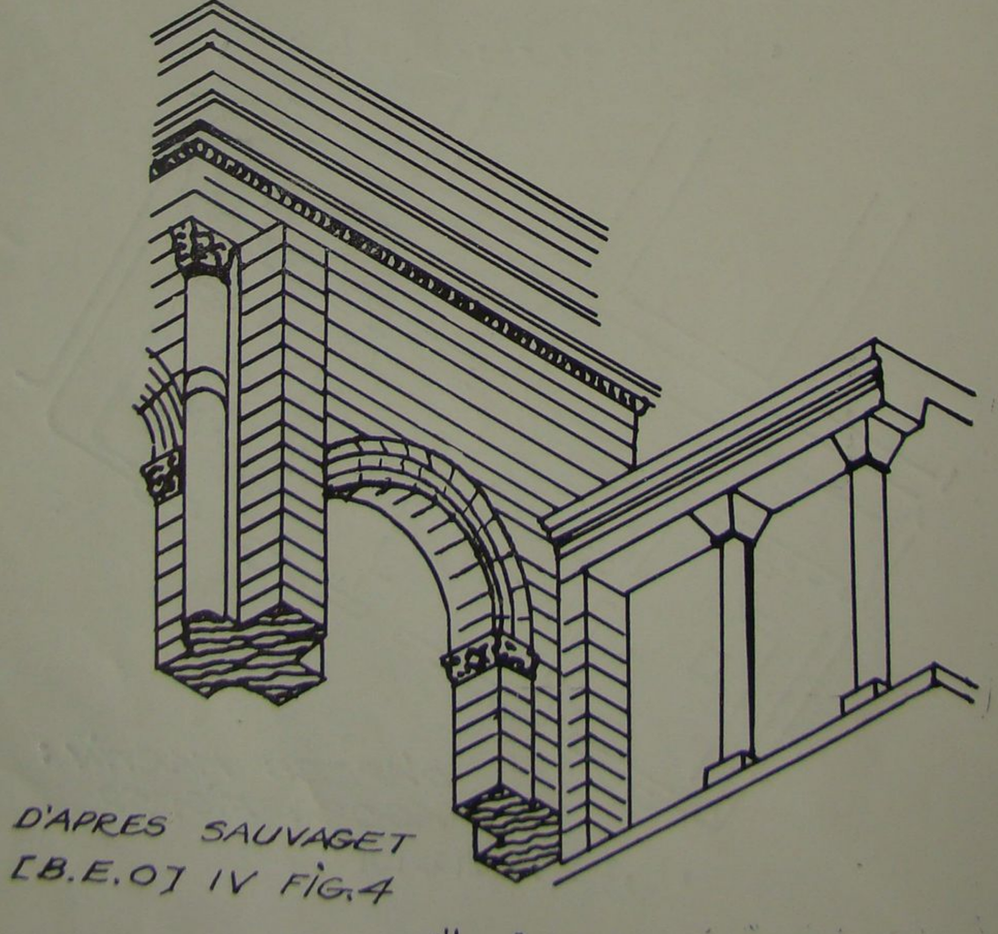
وكانت الابواب تؤدي الى الشوارع الرئيسية في المدينة ، ففي اللاذقية مثلا كان الباب الشرقي - وهو الباب الوحيد في هذه الجهة - يؤدي الى الشارع الرئيسي الذي يجتاز المدينة من الشرق الى الغرب ؛ وهناك باب آخر هو الباب الشمالي وكان يقع في نهاية الشارع الذي يمتد من الشمال الى الجنوب .

والخلاصة : يمكن حصر الاسباب التي ادت الى ازدهار المدن في العصر الهلنستي الى حسن بناء السلوقيين لعاصمتهم انطاكية واهتمامهم بالمدن الحديثة التي انشأوها فضلا عن ثروة البلاد الطبيعية واتساع نطاق التجارة . وقد شهدت سوريا في العصر الهلنستي عناصر جديدة في فن البناء (كالمسارح والملاعب وأماكن السباق والساحات العامة . . .) كما شهدت تنظيماً جديداً للمدن تراعى فيه شروط الدفاع والصحة وجمال المدينة . فالمدينة محصنة ، وللحاكم قصره في منتصف المدينة (كدمشق مثلا) ؛ أو بعيداً عن ضجة الاسواق (كانطاكية) ؛ أو في قلعة منيعة (كدورا اوروبوس) وللالهة معابدها ؛ وللسكان ساحاتهم العامة في منتصف المدينة (كما في المدن الداخلية)

اللوح – ١ –

D'APRES SAUVAGET
[B.E.O.] IV FIG 10

١ – مخطط اللادقية

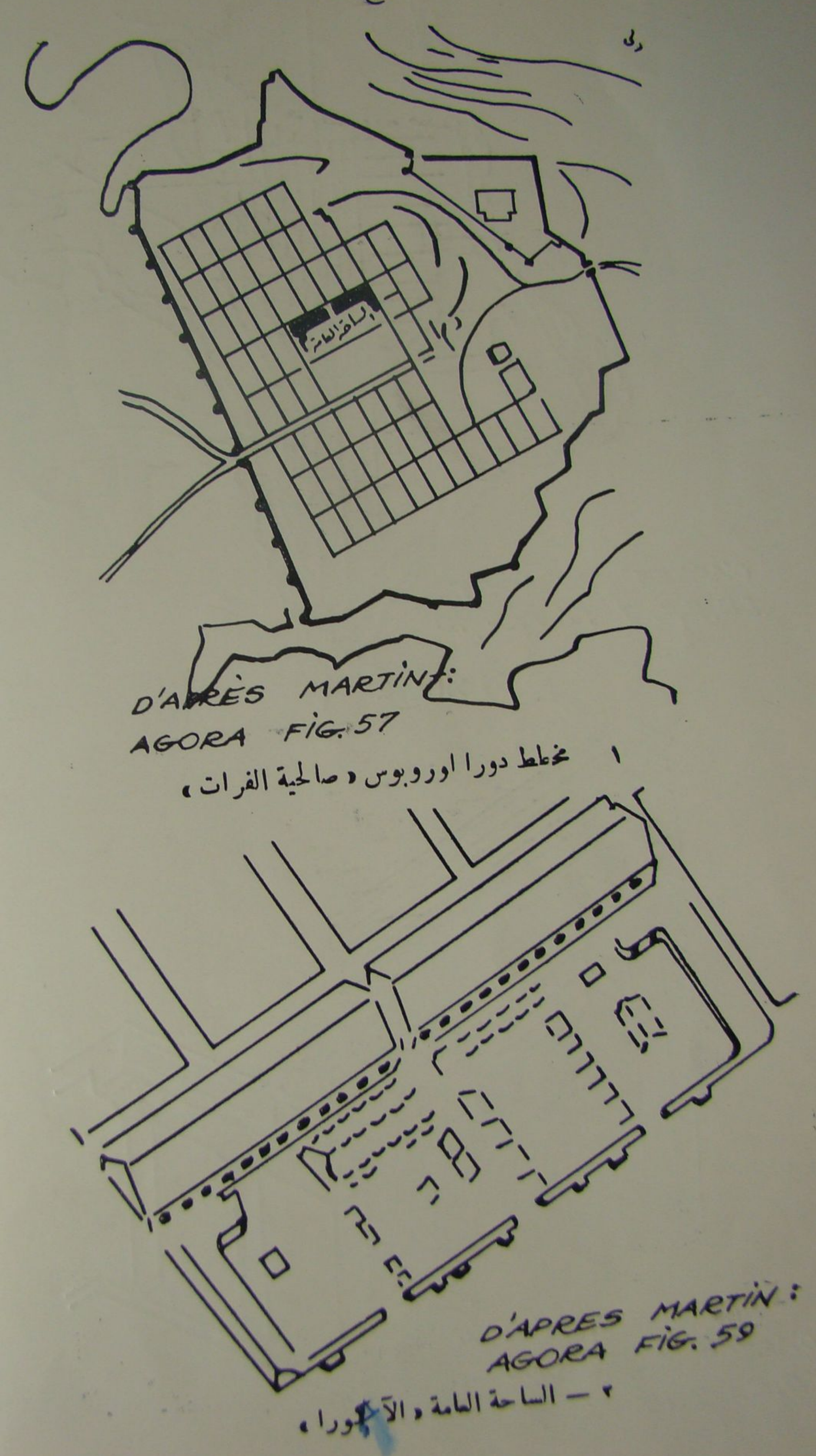


٢ – قوس النصر

أو في جانب منها (كما في المدن الساحلية) . وللتجارة أماكنها (في الاسواق أو في المخازن التي تحميها الأروقة) . وللشوارع ميزة تسهيل حركة المرور والاتجاه الى القصر والساحة العامة والمعبد والمسرح ... الخ ولم تهمل ناحية تزويد المدن بالمياه فكان لبناء الخزانات والصنابير فوائدها وجمالها وكان من نتيجة الاهتمام بتجميل المدن أن نصبت الاقواس وانتشرت أروقة على طرفي الشارع الرئيسي وكثرت الاشجار وأماكن الترفيه والنزهات ، مما ساعد على ازدياد السكان حتى بلغ عدد سكان انطاكية – عاصمة سوريا في العصر الهلنستي – أكثر من ثلاثمائة الف نسمة ولقبها المؤرخون بلؤلؤة الشرق .

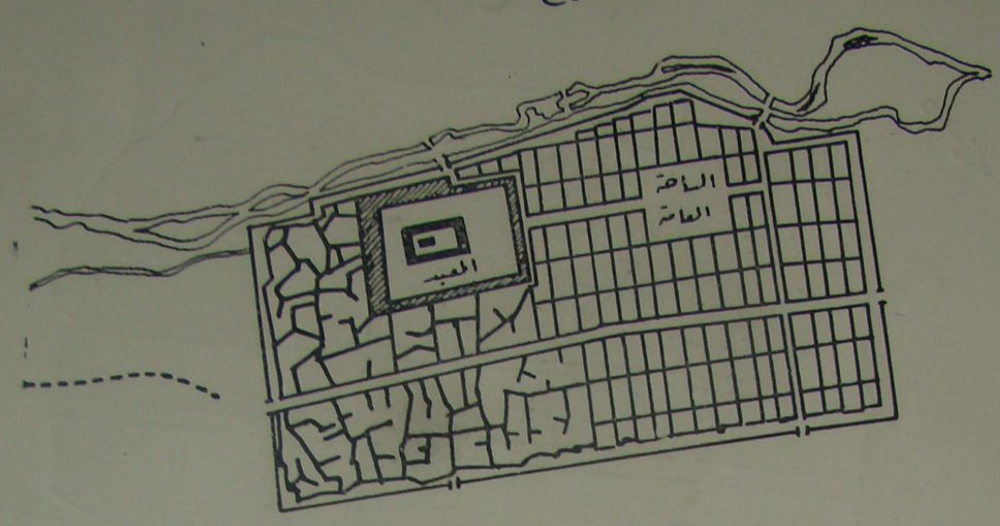
دمشق :

بشير زهدي



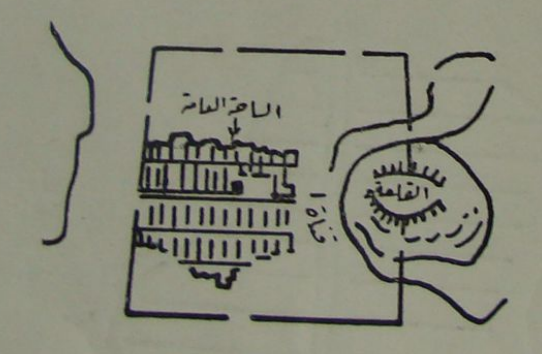
١ مخطط دورا اوروبوس « صالحية الفرات »

٢ — الساحة العامة « الآغورا »



D'APRÈS SAUVAGET [R.E.I] IV FIG. 6

١ — مخطط دمشق



D'APRES GUTTON: ALEP p8

٢ — مخطط بيرويا « حلب »

اللوح - ٤ -

انطاكية في عهد سلوقس نيكاتور

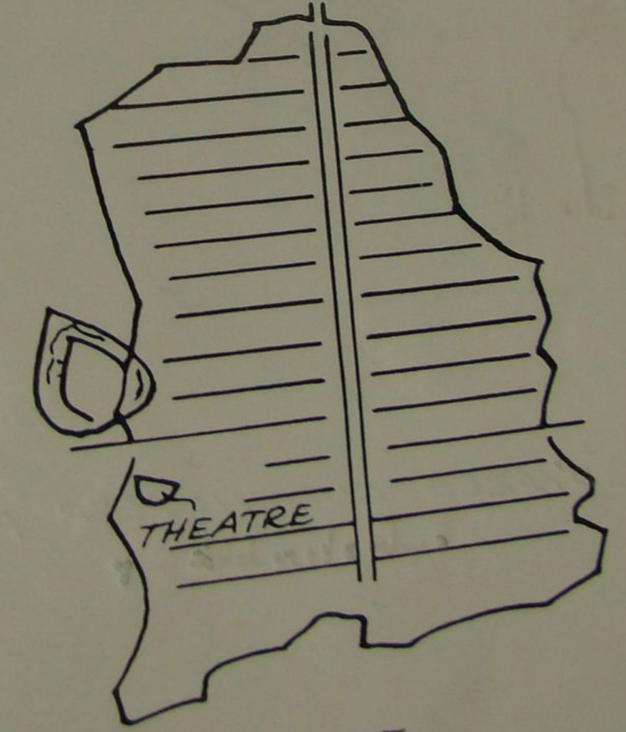
الحي الذي بناه سلوقس كالينيكوس

نهر العاصي

الحي الذي بناه انطيوخس ابيفان

D'APRÈS VITA PINTO:
ANTIOCHE PL. II

١ – مخطط انطاكية



D'APRÈS SAUVAGET
[B. E. O] IV FIG. II

٢ – مخطط افاميا « قلعة المضيق »